



مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ ﷺ أَنَّهُ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَحْوَالِهِ، وَأَحْوَالِ أُمَّتِهِ، وَجَمِيعَ الْخَلَائِقِ، فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَنِّ وَلِحِظَةٍ. وَأَنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ وَبَصَرِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - فِي حَقَارَتِهَا وَصِغَرِهَا - فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْهَا وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. كَقَوْلِهِ: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٢)، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ حَرَكَةَ الْأَشْجَارِ وَغَيْرَهَا مِنْ الْجَمَادَاتِ، وَكَذَلِكَ الدُّوَابِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٣)، وَقَالَ

(١) يونس: ٦١.

(٢) الأنعام: ٥٩.

(٣) الأنعام: ٣٨.

تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١)

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (٢) الَّذِي يَرْزُقُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٣﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٤﴾ (١)

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم، راءون سامعون. ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان، قال: « أَنْ تُعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » (٣)

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥﴾ ولا شك أن الإخبار بذلك ومخاطبة النبي ﷺ به، له دلالة في عظم شأن المخبر به، والمخاطب ﷺ، فالمخبر به شمول العلم، وشمول الرعاية، وشمول الرقابة ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ وَمَا يَعْرُبُ

(١) هود: ٦.

(٢) الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩.

(٣) البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ رقم ٤٨.

عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٠﴾، والمخاطب هو رسول الله ﷺ بقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ والله يخبره أنه يعلم جميع أحواله. وفي ذلك ما فيه من مؤانسة له، وحفاوة به، ورعاية لجميع أمره؛ فالله معه في كل شأن، يشهد ويسمع ويرى.

ومن تدبر هذه الآية أيقن أن الكون كله - بما فيه ومن فيه - ليس متروكاً بلا رعاية أو رقابة. واليقين بذلك له أثره البالغ في حياة الناس وروابطهم، له أثره في دعوكم إلى الخير، وكفهم عن الشر؛ فهذا وذاك مُسَجَّلٌ عليهم، يروونه حاضراً أمام أعينهم.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(١)، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٢) ﴿

ولا تَسَلْ عما يكون في حياة الناس من أمْنٍ وهم يوقنون ألا شيء من أمرهم يخاف على ربهم، ما يُسِرُّونَ به وما يجهرُونَ.

إن الذي يُوقِنُ أن الله يعلم ما توسوس به نفسه، يُحْسِنُ نِيَّتَهُ، وَيُحْسِنُ عَمَلَهُ، والذين لا يوقنون بذلك تراهم صرغى أهوائهم ومقاصدهم، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا! ويمضي الأجلُ المُسَمَّى لهم وهم لم يترؤدوا بزادٍ ينفعهم، ولم يُقدِّموا شيئاً لِعَدِهِمْ؛ لَأَنَّ الْعَدَّ لَيْسَ فِي حُسْبَانِهِمْ.

(١) آل عمران: من الآية ٣٠.

(٢) الزلزلة: ٧، ٨.

إِنَّ الَّذِي يَفْقِدُ الْيَقِينَ بِمَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ يَخْسِرُ نَفْسَهُ، وَيَخْسِرُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ؛ لِأَنَّ الْأَمْنَ الَّذِي يُرْجَى مُنَوِّطٌ بِصِفَاتٍ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالْيَقِينِ بِرَقَابَةِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

إِنَّ الْجَرِيمَةَ - وَهِيَ نِيَّةٌ مُبَيَّنَةٌ فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا - تَعْجِزُ قُوَى الْبَشَرِ قَاطِبَةً أَنْ تُحِيطَ بِهَا؛ فَلَا مَقْدَرَةَ لَهُمْ عَلَى مَنَعِهَا قَبْلَ أَنْ تُرَى فِي وَاقِعٍ، وَلَكِنَّ الْيَقِينَ بِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ يُجْعَلُ الْإِنْسَانُ يُحَذَّرُ أَنْ يَرَى اللَّهَ مِنْهُ نِيَّةً سُوِّءَ. وَنِيَّةُ السُّوءِ تَدْمُرُ صَاحِبَهَا قَبْلَ أَنْ تُدْمَرَ غَيْرُهُ.

وَمَنْ رَاقَبَ رَبَّهُ وَقَى نَفْسَهُ نِيَّةَ السُّوءِ قَبْلَ أَنْ تَمْتَدَّ بِسُوِّءٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَفْلِتَ مِنْ حِسَابٍ وَجْزَاءٍ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾^(١)

إِنَّ الْإِخْبَارَ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، لَهُ أَثَرُهُ فِي إِعْدَادِ إِنْسَانٍ الْخَيْرِ الَّذِي يَخْشَى رَبَّهُ وَيَرْجُو رَحْمَتَهُ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَاهُنَا سَاقُونَ ﴿٢﴾



(١) البقرة: من الآية ٢٣٥.

(٢) المؤمنون: ٦٠، ٦١.